أثر البيئة العربية في بنية النص القرآني

الشيخ علي حب الله*

تمهيد:

يراد من البيئة هنا المكان والموقع الجغرافي، بكل ما يحمله من مظاهر فيزيائية خاصة، وما يكتنفه من حيوان ونبات وتضاريس، وأيضاً ما يشتمل عليه من روابط اجتماعية، وطرق تفكير، وما يحوزه من اهتمامات، وغير ذلك. وبكلام آخر، المراد بالبيئة المكان والزمان (الزمان الوجودي النفسي)، من حيث هو تابع لرؤية الإنسان وبعد مهم من أبعاده، والمجتمع مع ما يتضمنه.

ولا تهدف هذه الدراسة إلى التوطئة لتحكيم وتسويد المنهجيات الوافدة على النص القرآني، وهي منهجيات لا تنتمي إلى تراثنا. وتدعي هذه المنهجيات امتلاكها للقوانين الناظمة لشبكة العلاقات اللغوية، وأنظمتها الموغلة في الزمن من خلال الملاحظة والنظر في أوضاعها الحاضرة، وتتمثل هذه المنهجيات، الآن، في الألسنية والبنيوية والمدرسة التفكيكية، مع قناعتنا بأن في الأدب العربي ما هو أغنى وأعمق مما جاءت به هذه المنهجيات ففي دراسات الباقلاني والجرجاني وغيرهما، الكثير من المباحث الدقيقة، وكذلك في كتابات الفلاسفة والمناطقة وعلماء أصول الفقه الكثير من المباحث المهمة، لكنها موزعة ومشتتة في كتب التراث، ويعتمد عمق نظرتنا في هذا البحث، على هذا التراث المَنْجَم الذي ننتمي إليه، وإن اقتضت الضرورة أحياناً التعرض لبعض مباحثهم المهمة.

* كاتب وباحث من لبنان.

النص والبيئة اللغوية:

يبدو القرآن، من جهة أنه رسالة، إلى مرسل إليه، ككائن عاقل من خلال نصه المتجسد في اللغة العربية تحديداً كما هو صريح القرآن نفسه الذي دل على عربية لغته، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[١]، وهي نقطة سنعود إليها لاحقاً.

واللغة العربية كأي لغة، لها مكونات تسهم في توليد مفرداتها. والمكوِّن إما داخلي ينحصر في البيئة، ويندرج فيها المكان والزمان والمجتمع بالمعنى الذي مرَّ آنفاً، وإما خارجي يتمثل في الدخيل الناتج عن تلاقح الثقافات وتصادم الحضارات، ما يؤدي إلى تسرب مفردات تدخل في نسيج اللغة، وتسري معها في رحلتها عبر الزمن، ويعتريها ما يعتري المفردات الأهلية من انزياح في الدلالة، وتحوير في المدلول، كما في حالة الاشتقاق الكبير مثلاً. وتشبه اللغة في هذا الأمر الكائن الحي فيعرض عليها الولادة والشباب والكهولة فالموت الكلي أو الجزئي لبعض مفرداتها المستعملة، بخروجها عن تعلق الإرادة الاستعمالية لأبناء اللغة أنفسهم.

والمفردة عبر امتدادها في الزمان والمكان تمتلك إمكانية تعبيرية وتكتنزها، وتسهم من ثمَّ في إحداث أثر بنيوي في تشكيل قيمة لغوية، إذ ما من مفردة إلا وصاغتها التجربة مع الزمن فأطلقتها بكل اتجاه مثقلة بهموم المكوِّن الأساسي للغة(الطبيعة والمجتمع)، ولذا يمكن عد اللغة منجماً وحقلاً معرفياً ومرجعاً لتقدير مظاهر السلوك الاجتماعي ولانعكاس الموقف تجاه الناموس الطبيعي، وبأدائها اليومي تلعب اللغة وظيفة إيقاظية لهذا المظهر من خلال الانعكاس في العقل الذي يعتاش في مفرداته الذهنية الحياتية على إعادة إنتاج النصوص اللغوية بوصفها نسيجاً كلامياً؛ لذا تجد قارئاً قد سبق له أن تناول نصاً ما، وفي تناوله مرة أخرى يجد فيه ما لم يجده سابقاً، فالنص لم يتغير ولكن الذي تغير حتماً هو وعي القارئ. ومن هنا، يحدد النص حضوره. ومن هنا أيضاً، المقولة المشهورة: «**القارئ يعطي النص من ثقافته**». يضاف إليه ما يلعبه اللامقروء في النص في اتساع الدلالة إلى جانب السياق.

إذاً، البيئة بتداعياتها وامتداداتها المتحركة عوامل وقوى تتآزر على تشكيل النص وتكوينه وإيجاد القيمة اللغوية له مستقلة عن إرادة الاستعمال، فللغة عالمها الخاص المستباح في مرحلة الاستعمال، لكن البيئة هي المكون لها تدخل وتتغلغل في نسيج الكلام

من جهة أنها منتج، وتحدد نوعه، فاللغة على هذا الأساس نتاج الوجود الإنساني ونتاج الاجتماع الإنساني لحظة انفعاله بالطبيعة، والاجتماع وهواجسه المصيرية التي تستهلك العمر، فالزمن يمضي وكأنه بذلك يمارس عدائية مفتوحة حتى الدثور ذلك المصير الحتمي الذي يحاصر الإنسان فيجعله رهين القلق، فلا يرى الأشياء إلا تحت وطأة تأثير هذا القلق، وتتحمل اللغة خلاصة هذه التجارب وهذه المعاناة وكأنها مخزن لها.

وبكلام أدق، تقوم البيئة بصياغة اللغة بمفرداتها وتراكيبها بصورة غير مباشرة وتصوغ العقل والفكر بصورة مباشرة، ومن ثم تصاغ اللغة حسب مقدار تفاعل الإنسان مع تلك المكونات الأساسية التي تشكل البيئة.

وقد عزا بعض العلماء للطبيعة اليونانية الفضل في وجود الفلسفة فيها بتأثير هذا الانعكاس، وكذلك ينقل عن «رينان» قوله بأثر المكان في الفكر العربي.

فاللغة صورة الفكر الذي هو بدوره انعكاس للواقع في الدماغ –مع ما تحمله كلمة الانعكاس من إشكالية– وتأثير الواقع من ثمَّ عن طريق الانعكاس هذا، في كل مفردات الوجود الفكري واللغوي للإنسان، وهي نقطة تلتقي مع المنهجية الماركسية القائمة على أبحاث العالم النفسي الروسي الشهير «بافلوف» ونظريته في الانعكاس الشرطي والاستجابة الشرطية. فقد ذهبت الماركسية إلى أن الأفكار لا يمكن أن توجد إلا على أساس الألفاظ والجمل اللغوية. فليس هناك أفكار عارية متحررة من أدوات اللغة فاللغة هي الواقع المباشر للفكر[٢]، وبدوره رأى بافلوف أن العمليات الأساسية للنشاط المخي هي الأفعال المنعكسة الشرطية التي تطلقها الإحساسات سواء الخارجية والداخلية. وأثبت تالياً، أن الكلمات بمضمونها ومعناها يمكن أن تحل محل الإحساسات التي تُحدِثُها الأشياء التي تدل عليها. وهكذا تكون الكلمات عنده إشارات للإشارات أي نظاماً ثانياً في العملية الإشارية، يتكون على أساس النظام الأول. هكذا تعتبر اللغة عنده ركيزة الفكر المجرد الذي يتخطى الإحساس الوقتي وركيزة النظام العقلي، فهي التي تتيح للإنسان أن يعكس الواقع بأكبر درجة من الدقة.

وأثبت بافلوف بالتجربة أن شيئاً محدداً ومعيناً إذا ارتبط بمنبِّه طبيعي اكتسب نفس الفعالية والتأثير، وحل محله في هذا الدور محدثاً نفس الاستجابة التي يحدثها المنبه الطبيعي، وتجربته على الكلب مشهورة، فتقديم الطعام منبه طبيعي لسيلان لعابه فور رؤيته لإناء الطعام. لكن بافلوف قرن مع تقديم الإناء دق الجرس فرأى أن دق الجرس

أحدث نفس الأثر الذي يحدثه الطعام، وفي الحقيقة فإن الدق يشير إلى الإناء والإناء إلى الطعام، فدق الجرس والإناء منبهان طبيعيان.

وهكذا اعتبر بافلوف أن الذهن البشري خاضع لنظامين إشاريين: نظام إشاري طبيعي ونظام إشاري لغوي (منبهات ثانوية) والنتيجة التي نصل إليها أن الإنسان لا يستطيع أن يفكر بدون منبه؛ لأن الفكر في حقيقته ليس إلا استجابة لهذا المنبه الذي هو اللغة. فاللغة إذاً، صورة الفكر الذي هو بدوره انعكاس للواقع في الدماغ، وتأثير الواقع من ثمَّ عن طريق الانعكاس في مفردات الوجود الفكري واللغوي للإنسان، ولا يعنينا هنا الانتصار للمذهب الحسي(هيوم) في مقابل المذهب العقلي ومقولته الأفكار الفطرية (ديكارت).

ونخلص إلى أن كل شيء في اللغة موجود من خبرة الإنسان في التعاطي معه ومن خوفه وقلقه ومن رجائه ويأسه... والتعاطي مع الأشياء في المكان الخصيب يختلف عنه في المكان المجدب، فالشخصية الاجتماعية المتشكلة من العادات والقيم حينئذٍ، سوف تختلف بدورها من مكان إلى آخر، ومن مجتمع إلى آخر، وملاحظة قسمات الحياة العربية قبل الإسلام تمكننا من ملاحظة أثر المكان في البنية اللغوية لذلك المجتمع، وتالياً في تشكيل النص، فاللسان مؤسسة مجتمعية ونظام من القيم، كما يقول رولان بارت(٣)، يحكي بأمانة مظاهر الطبيعة والاجتماع وقد ألمح إلى هذه الفكرة المستشرق المشهور رينان عندما تحدث عن أثر المكان في الفكر العربي، كما مر.

والنتيجة، أن الطبيعة والاجتماع يسهمان بشكل جوهري في تشكيل النص وتكوينه فهي تدخل في نسيج الكلام وتحدد نوعه؛ ولذلك هي من مكونات النص. وهنا نفترض مشاركة المتلقي للمتكلم في إنتاج النص بمعنى أن للمتلقي سلطة على النص وأن المبدع له مسكون بالمتلقي فرداً أو جماعة، فالمتلقي لا يقف موقفاً سلبياً من النص من حيث الإنتاج، بل يجعل له فعالية فيه، بأن يجعل المبدع للنص مقيداً في إنتاجه للنص بأبعاد وامتدادات المتلقي في الطبيعة والاجتماع والتي هي نفسها من مكونات النص –كما قلنا– وهو غير مراعاة المتكلم والمبدع في كلامه مستويات السامع ومقتضى أحواله؛ حيث قالوا: «**البلاغة إلقاء الكلام على مقتضى الحال**»؛ لأن السلبية هنا ملحوظة، فمعنى مشاركة المتلقي في إنتاج النص، أو أن له سلطة عليه أن المتلقي ليس فاعلاً في النص، تأويلاً أو تفسيراً أو تعليلاً لحظة تلقيه فحسب، بل هو فاعل فيه لحظة إبداعه لكونه متلقياً على موقف من الطبيعة والاجتماع، فالمتلقي ينتج النص سواء أكان النص ترتيب ألفاظ تنتج الدلالة كما

يقول المعتزلة والشيعة، أم ترتيب ألفاظ تنتجه الدلالة كما يقول الأشاعرة طبقاً لرؤيتهم حول الكلام النفسي.

فالواقع مرجع المفاهيم المتجسدة في اللغة والكلام، حيث الكلام صورة الواقع المرسلة، وللمرسل إليه (المتلقي) أثر في تشكيل الصورة المرسلة؛ لأنها وليدة العلاقة بين الإنسان والطبيعة والاجتماع.

وإليك ما يدل على ارتباط النص القرآني بالواقع والبيئة العربية خاصة:

١- **أسباب النزول:** يشكل موضوع أسباب النزول، كمبحث هام من مباحث علوم القرآن، تقريراً للحقيقة التي نحن بصددها من أن النص القرآني تَشَكَّل على وفق الواقع (الطبيعة/ الاجتماع) الذي نزل فيه، فمجرى الأحداث الاجتماعية الطبيعية (طبيعة الصحراء خاصة)، كانت تحتم تشكل النص وفق هذه الاهتمامات خاصة، والتي يلعب الاجتماع والطبيعة دوراً في تكوينها.

ومعلوم أن كثيراً من الآيات نزلت لأسباب دعت إليها، ولا سيما في آيات الأحكام، بل إن بعضها يصرح بذلك وهي الآيات التي صُدِّرت بقوله تعالى: ﴿**يسألونك**﴾ أو ﴿**يستفتونك**﴾ وما شاكلها من العبارات.

وإذا أضفنا إلى معلوماتنا، أن تمام القرآن أنزل في مدة ثلاث وعشرين سنة عرفنا مدى الدور الذي لعبته الحوادث الواقعة والنازلة في وجود النص القرآني ونزوله ومن ثم تنوعه، وتكوُّن الحوادث خاضع لاندراج الحدث ضمن الاهتمام الإنساني، ويصاغ هذا الاهتمام بتأثير المكان والاجتماع المدني العربي الذي يحتضن اهتماماته وموضوعات تفكير العقل العربي، فما أن يقع بين المسلمين حادث ما، أو يلتبس عليهم أمر أو تقع بينهم مشكلة حتى يهرعون إلى الرسول يستفتونه، منتظرين بيان الحلول الناجعة لكل ذلك، وهنا يتنزل القرآن مجيباً عن أسئلتهم مبيناً ما التبس عليهم واضعاً الحلول لما اعترض حياتهم من حوادث ومشكلات.

نعم، اتفق الجمهور على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وأن المورد لا يخصص الوارد، يعنون أن الآية إذا نزلت في واقعة، أو جواباً عن سؤال أو استفتاء، فلا خصوصية لسبب نزولها أو موردها في معناها، بل العمل على عموم اللفظ الوارد؛ لأن النص فور تنزله وإنشائه وجعله، يلامس المورد ليحلق عبر الزمن، وينفلت من أسر المكان والزمان والخصوصيات التي تأسر معناه، لكن هذا لا يضر بالجهة التي نبحث فيها.

٢- **تقسيم الآيات إلى مكي ومدني:** وظاهرة المكي والمدني أيضاً ملمح من ملامح رعاية خصوصية البيئة والاجتماع المدني وتنوعه في النص القرآني، فالمجتمع المكي يمتلك خصوصيات ومميزات ينفرد بها عن مجتمع المدينة آنذاك، فاقتضى تعدد المكان إلى جانب اختلاف المجتمعات اختلاف التنزيل نفسه، واختلاف معالجات المشاكل فيها، وقد ذكر أن العلة التي لأجلها أنزل الله تعالى بعض السور قصيرة، وبعض السور طويلة، أن الأولى نزلت بمكة وفيها قوم أقحاح بلغاء فكفاهم الإيجاز عن الشرح وزيادة البيان، بينما الحال في مجتمع المدينة مختلفة حيث يقطن اليهود والنصارى وهو موجب ومقتضٍ للزيادة في الألفاظ طمعاً في مزيد من البيان. يضاف إليه اختلاف ظروف الجماعة الذي أوجب تشريعات مغايرة. كما هو مفصّل في مباحث المكي والمدني في علوم القرآن.

٣- **التطور اللغوي:** ومن وجهة أخرى نرى القرآن يتعاطى بشكل واقعي مع ما استجد من تغيرات لغوية في مجتمع العرب وفي لغتهم على وجه التحديد، فدخل في نصه ما هو من غير لغة الحجاز تبعاً للاحتكاك بين الحجازيين وغيرهم، وكذلك دخلت في نصه بعض المفردات التي هي من غير لغة العرب أصلاً واعتبرها القرآن أمراً واقعياً. فاستجاب لهذه المتغيرات اللغوية، وتشكل نصه على طبقها، وهو بذلك يكن غاية الاحترام لما طرأ من تغير على لغة العرب بفعل احتكاكهم مع الأمم غير العربية والمجاورة لهم.

٤- **النسخ:** لماذا نذهب بعيداً وبين أيدينا ظاهرة أكثر حكاية عن هذا الارتباط الغني بين الواقع (البيئة) وبين النص القرآني. حتى أن هذا النص نفسه يعدُّ تابعاً للواقع في تحركه، وبالذات تابعاً لثنائية المصالح والمفاسد التي تتحكم في تقييم الواقع، والتي تجعل النص يتحرك تبعاً لتحركه وتغيره، وتالياً تبعاً للمقاصد الشرعية المطلوبة، فبحسب الرؤية الكلاسكية لآلية عمل الناسخ والمنسوخ نجد أن المنسوخ يفقد محركيته وحجيته بمجرد تغير المصلحة المتضمنة فيه واستنفاذها. وأن الناسخ ورد استجابةً للواقع الملحاح، فكل من الناسخ والمنسوخ قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالواقع المعيش وشبكة علاقته بمصالح الأنام، من دون أن يعيق ذلك انطلاق النص بعناصره الحيوية التي تتجاوز كل الخصوصيات عبر الزمان والمكان.

٥- **اعتبار التاريخ:** بل أكثر من هذا، إن تلك الحوادث والمجادلات والخصومات التي تتصل بمسائل لا تنتمي، إلى الحاضر المحمدي بل تنتمي إلى التاريخ بأوسع مداه، كانت حاضرة هي أيضاً. فقد أخذ التاريخ العام من النص القرآني مساحة واسعة، وهو ما يعكس

الاهتمام بالتاريخ الذي هو في جوهره واقع سبق تكوُّنه ثم تلاشى. وربط القرآن بالتاريخ يبتني على تهميش واستبعاد الدراسة التي قدمها أحمد محمد خلف الله في كتابه «**الفن القصصي في القرآن**».

٦- **التدرج في التشريع:** ومن جهة أخرى، نلاحظ أن النص القرآني لم يكن نصاً قارئاً لنص أصلي، بقدر ما كان قراءات لوضعية أو وضعيات اجتماعية مشخصة ونتاجاً لخصوصياتها، يتبدَّى هذا الملمح أكثر جلاءً في ظاهرة التدرج في التشريع لبعض الأحكام كتحريم الخمر، وتحريم الربا على قول، ونزول القرآن منجماً على هذا النحو ينم عن كونه نصاً تاريخياً، كونه نزل حسب الحوادث ومقتضى الحال ورعاية لوسائل تغيير الواقع وهو في سبيل ذلك يتحرَّى أفضل الطرق. كل ذلك في سياق تاريخي، حيث دخل حيز البشر، وخضع لتموضعهم الاجتماعي والتاريخي والتراثي. وهو ما يجعلنا نصل إلى نتيجة نهائية، مفادها: أن النص القرآني نص لغوي تاريخي، أما أنه نص لغوي، فواضح وهو صريح القرآن -كما سيأتي- ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**﴾[٤]، أما أنه نص تاريخي فيظهر من الغوص في الآية الآنفة الذكر نفسها، فإذا كان لسان القوم مستودع ثقافتهم وعلومهم، ومخزون تجاربهم، ومعاناتهم منطرحة في أجواء الزمان والمكان والمجتمع الذي يعيش فيه أبناء اللسان أنفسهم، فهو يعني أن التاريخية للنص القرآني فوق المنازعة، ولو بصورة مبدئية.

هل يمكن أن تكون إشكالية تاريخية النص القرآني وعدم تاريخيته حاضرة، أو وجهاً من وجوه النزاع التاريخي المشهور بين المعتزلة والحنابلة حول خلق القرآن؟ فيكون معنى كونه مخلوقاً -كما يقول المعتزلة- جرُّ آياته عنوة، وربطها بالواقع، وسيلانها مع التاريخ، ويكون معنى كون القرآن أزلياً وغير مخلوق فصل القرآن عن الواقع، وقطعه عن التاريخ، فلا يكون للواقع سلطة أن يملي على النص نمط العلاقة به سلباً أو إيجاباً.

دعونا لا نسترسل في هذه النقطة، أعني تاريخية النص القرآني، لكن لا على أن تعد مسلمة على الرغم مما حشدنا للاستدلال عليها من خلال تلمس مكونات اللغة من الطبيعة المنطرحة في الزمان والمكان والاجتماع الذي يحكي المفردات والذهنية التي تكوِّن العقل، وكذلك من خلال التعرض للنسخ، وأسباب النزول، والتدرج في التشريع، والمكي والمدني، وغير ذلك...

أقول: دعونا نتجاوز هذه النقطة للخوض في ملمح آخر للنص في ذهن القارئ، فالنص

يستعين هنا بالعقل القارئ، ويقوم بعملية انسحاب ذكية إلى القواسم المشتركة بين العقلاء من حيث هم عقلاء، على اعتبار أن النظام الذهني الحاسم حاضر عند الجميع، النص بحالة العقل له ينطلق من الواقع لينسل منه.

ويمارس العقل عدائية متواصلة مع الواقع انتصاراً للنص، وهو بذلك يؤمن اعتباره مدلول بعض المفردات لصيقة الصلة بالواقع مثل تعبير «رباط الخيل» أوسع مما تدل عليه المفردات ذاتها، وأن الزنا الذي اتهمت به إحدى زوجات النبي لا يشكل خصوصية فيها، أو في الرسول نفسه، وأن الزوجة التي اشتكت إلى الله في قضية الظهار وهي كغيرها من أسباب النزول، كانت منطلقاً لتحرير النص وتعاليه على الواقع، فسبب النزول علَم على الآية وليس معنىً لها بالمعنى الدقيق.

ومن المحاور التي تشكل قواسم مشتركة بين البشر الاهتمام المعرفي بكيفية الخلق باعتباره قلقاً إنسانياً عاماً، موضع اهتمام الإنسان أينما كان، لأي قومية انتمى، فهو قلق يتعدى حدود العقل العربي. والنص القرآني بذلك، يخاطب الفطرة الإنسانية التي هي القاسم المشترك بين البشر جميعاً.

وكذلك يعتبر البحث عن المصير وغايات الخلق وحكمته، والقضاء والقدر... قواسم مشتركة أيضاً، وفي هذه المرحلة تنزع النصوص الحاكية عن هذه القواسم؛ لتكون نصوصاً عالية.

وبكلام آخر، إن اللغة في مرحلة الحدوث والتكوُّن تخضع للمكون الواقعي (البيئة) أما في مرحلة البقاء والاستمرار، فإن اللغة تعبّر عن تراثها حيث تنزع في مرحلة من مراحل تطورها، ولاسيما في النصوص العالية التي تمتاز بجودة النظم والدقة وروعة التركيب والمرونة في العلاقة بين مفرداتها إلى التعالي عن المكان والزمان والمجتمع بكل روابطه، وهو ما ربما يفهم من قول علماء الأصول بالإطلاق الأزماني للنص، وبقاعدة أن المورد (الذي يحتضن البيئة) لا يخصص الوارد (النص)، بل هو ما يفهم من مقولة الألسنيين والبنيويين عن النصوص العالية بأنها نص مفتوح وهي حقيقة، ربما أشار إليها أمير المؤمنين(ع) عندما بعث ابن عباس لمجادلة الخوارج قائلاً له: «**لا تخاصمهم بالقرآن، فإنَّ القرآن حمّال ذو وجوه**»[٥]، والنصوص العالية مرحلة من مراحل تطور اللغة، لا تخضع للخصوصيات التي رافقت حدوث العلاقة بين اللفظ والمعنى بالاتفاق؛ «**لأن الكلام المتعارف عند الجمهور يسمى كلاماً لكونه موضوعاً؛ بحيث يكون حضور خصوصيات الأصوات منشأ**

لحضور خصوصيات الأشياء عند النفس، وينتقل منها إليها مع جريان العادة بذلك، فلو فرضنا خصوصيات حركات أو كيفيات أخر سوى الكيفيات المسموعة موضوعة بإزاء الأشياء المدلولة؛ بحيث تجري العادة بالانتقال منها إليها وحضور الثانية بمجرد حضور الأولى كما في الأصوات كانت كلمات بلا شائبة مجاز، وكان حال الأصوات حينئذ كحال الحركات والكيفيات الأخر المحسوسة أو غيرها، إلا في عدم الدلالة على معنى، وكون الكلام صوتاً من الأمور الاتفاقية لا أنه لو لم يكن صوتاً لم يكن كلاماً، وإنما اختاروا الأصوات المتقاطعة في الفم لكونها أسهل تأدية وأسرع وصولاً، وإلا فهي موجود من الموجودات في العالم وكيفيات مسموعة مثل كيفيات محسوسة أخر، فالمناط في الكلام الوضع مع تكرر حضور الموجودات المدلولة عند حضور الموجودات الدالة»[٦].

فهذا النص الذي أورده الملا هادي السبزواري في حاشية له على كتاب الملا صدرا والذي يدل على عمق النظرة إلى الكلام والصوت والقول والأشياء والعلاقات الدقيقة بينها، إنما يمكن الأخذ به في مرحلة الحدوث والوضع، لا في المراحل التطورية للغة وانسحابها إلى القواسم المشتركة والمعاني المجردة.

على أن هذه الظاهرة اللغوية ليست بدعاً في البلاغة العربية أو غريبة عن أساليب العرب وطرقهم في البيان، فالأمثال العربية مبنية على هذا الأساس فجهينة في المثل «**وعند جهينة الخبر اليقين**»، وكذلك المرأ الذي ضيّع الشيء في قولهم «**الصيف ضيّعت اللبن**» إلى غيرها من الأمثلة الكثيرة[٧]، لا تولي أهمية تذكر للإطار التاريخي أو للخصوصية والمناسبة التي قيلت فيها –حتى أنها قد نُسِيَتْ– سوى أنها منطلق إلى مديات بعيدة يصلها النص بمعونة عقل القارئ. أما خصوصيات المثل، فإنه يصيبها التمزق في حدود الزمان والمكان والمجتمع الخاص الذي ولدت فيه.

ولأن النص القرآني يمتلك نزوعاً للانسحاب إلى القواسم المشتركة بين البشر باعتباره دعوة عالمية لم يرد فيه ذكر الكثير من المفردات الحاكية عن الطبيعة العربية مثل كلمة سيف–صحراء. إلى كثير من المفردات العربية التي هي أسماء الأشياء، لكن ذلك لا يقدح أبداً في أن اللغة القرآنية كنصوص لم تُرِدْ التفلُّت من البيئة العربية في مدلول الكلام. فقد ذكر الضريع وكثير من نباتات الصحراء، والواحات كالنخيل، والأعناب والرمان والأسد، والسدر، والتين، والزيتون. وكذلك ذكرت أسماء أماكن جغرافية مكة مثلاً باسم بكة ويثرب وكثير من أسماء الحيوانات في تلك البيئة كالبعير سفينة الصحراء، والبغال، والحمير،

والفيل، والبقرة... وكذلك أسماء الأشياء كالأباريق والأكواب والبئر وبعض السباع، كالقسورة والقرد والخنزير... وهكذا تحضر البيئة العربية بوصفها مكان النص بموجوداتها المكانية والنباتية والحيوانية، وأشيائها ومعتقداتها وامتداداتها الثقافية الموروثة، ولم ترد أسماء الموجودات نفسها في بيئة أخرى، وإن كانت تفيد فائدتها «كاللاما» في أمريكا الجنوبية، إلى ما هنالك من كائنات غريبة عن بيئة الصحراء العربية.

وكيف يتسنى لغير العربي ممن لا يعرف النخل أن يدرك معنى العرجون القديم في قوله تعالى: ﴿ **وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ** ﴾[٨]، وكذلك الطلح في قوله تعالى: ﴿ **وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ** ﴾[٩]، والطلع في قوله: ﴿ **وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ** ﴾[١٠]، إلى غير ذلك مما يطول ذكره.

وكذلك كان من الطبيعي أن يتعرض القرآن لخصوص عادات العرب في مجتمعاتهم دون سواهم. والاطلاع على هذه العادات يخوِّلنا معرفة المراد من الأزلام والأنصاب والبحيرة والسائبة... في قوله تعالى: ﴿ **مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ** ﴾[١١]. وكذلك المكاء والتصدية في قوله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً** ﴾[١٢]، وكذلك الصفا والمروة إلى جانب أنها أماكن في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللّهِ** ﴾[١٣]، وكذلك الوأد في قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ** ﴾[١٤]، ومع أن الاجتماع العربي آنذاك يعيش وسط مجتمعات وثنية، إلا أن النص القرآني لم يتعرض لأوثان الهند والصين وغيرها من البلدان بل ذكر اللات والعزة ومناة الثالثة الأخرى كما في الآية التاسعة عشر من سورة النجم، مما تعرفه العرب.

وعلى طبق نظرة العربي إلى المرأة والعلاقة معها، وهي علاقة تقوم على مبدأ الغيرة، وَرَدَ النص بالوعد الإلهي: بالحور المقصورات في الخيام[١٥]، وأن فيهن: ﴿**قاصرات الطرف لم يطمثهن إنسٌ قبلهم ولا جان**﴾[١٦].

ومن كل هذه الشواهد، النماذج والأمثلة، نكتشف العلاقة الوثيقة بين النص القرآني والبيئة العربية، والأمر نفسه نجده في السنة النبوية وكلام الأئمة(ع) بل الأمر فيهما أوضح. بل إن كثيراً من النصوص قد تشكلت على وفق العقل العربي ورؤيته للقضايا الكبرى التي لها علاقة بالحياة والتاريخ والمجتمع مقارنة مع ما جاءت به اليهودية والنصرانية.

فتعرض النص القرآني في بنيته للقتال، والأسر، والرق، والصلح، والسلم، والثأر،

والحلف، والجوار، والمال، والخمر، والميسر، والجن، والشياطين، وغير ذلك مما كانت تموج به الحياة العربية زمن النص من مفردات.

كما تعرض النص القرآني لكل المقولات الأخلاقية: كالشجاعة، والكرم، والبخل، والحسد، والعلم، والجهل، إلى غيرها مما كانت تزخر به الحياة القبلية.

وإلى جانب ما مضى هناك مداميك لهذا النص تتمثل في الحكم والمواعظ والمنقولة عن الديانات السابقة، ولاسيما الإبراهيمية (اليهودية، والمسيحية). مما أدرج في علم أصول الفقه ضمن باب شرع من قبلنا.

والقرآن الكريم سعى إلى إعادة تشكيل العقل عبر تجاوزه للسائد من الأفكار والمنظومات الذهنية، فقدم الله تعالى نفسه بأوصاف كان الداعي إلى بيانها هو الإجراء المؤسس على قصور معرفي يحدده واقع محصور في الزمان والمكان.

وبكلام آخر، أنزل الله تعالى القرآن على نبيه(ص) ليؤسس على معتقدات العرب ومعقولاتهم عن الزمان والمكان والمجتمع منظومةً فكرية تتجاوز ما كان شائعاً، في عصرهم إلى محاكاة الفطرة وهي القاسم المشترك بين البشر وكثير من الآيات تساعد عليه، على أن هذا المعنى مفاد بقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ**﴾(١٧)، بل إن القرآن نفسه كمعجزة جاءت على وفق ما هو سائد في الطبيعة العربية فالعقل العربي الذي أولى الفصاحة أهمية قصوى ما كان ليرضى بمعجزة لا تتناسب مع اهتماماته لكن ذلك لا يسوِّغ القول بأن المتلقي فاعل في النص وأن المبدع محكوم له إلا بالحمل على معانٍ بعيدة، على أنه لا ضير في أن يقال: إن النص القرآني تشكل على وفق الإجراءات الذهنية التي كان عليها الإنسان العربي المعني بالخطاب على أن هذه الدعوى لا يماري فيها أحد، بل في القرآن نفسه ما يؤكدها، من جهة أن القرآن استعمل أفانين العرب في الكلام، إنما خطورة هذه الدعوى تكمن في تجاوز هذا الحد وعدم الاقتصار عليه، واعتبار هذه الحقيقة مقدمة ينفذ من خلالها إلى القول بنظرية تاريخية الفكر الديني، والتاريخية موقف قوامه جعل التاريخ الأساس التفسيري الكبير، بمعنى أن التاريخية مذهب يسعى إلى الإحاطة بالوقائع الإنسانية من خلال ظروفها التاريخية، إنها تفترض عقيدة عامة أو صريحة تقول بأن الحقيقة لا يمكنها إلا أن تكون متناسبة والظروف المحيطة وصياغتها والتي لها طابع ظرفي.

والقول بالتاريخية حاصل من جهة أن الزمان والمكان والمجتمع لها دور كبير في

تشكيل وعي العربي وفكره، وإيراد الآيات إنما جاء على طبق تشكل هذا الفصل وطبقاً لحالة العرب وأحوالهم المتنوعة، فالآيات جاءت على وفق اهتمامات ومشاغل العقل العربي. وإذ تشكل النص القرآني على هذا النحو، فهو في رأي البعض قد يعني عدم عالمية الإسلام وأنه إنما أنزل للعرب خاصة، من جهة أنه لم يحكِ إلا اهتماماتهم أو هواجسهم النفسية والفكرية والاجتماعية كل ذلك إلى جانب الأدوار التي قام بها المكان والزمان والمجتمع من أجل تكوين العقل واللغة العربية وطبعها بسمات وخصائص منفردة ومتميزة، فكان من الطبيعي أن يعدهم النص القرآني بالجنان والأشجار والأنهار؛ لأن المكان في بيئة العربي مكان متفلِّت في أمدائه حيث الصحراء المتسعة وهذه الوعود لا تعطي التأثير نفسه على البشر القاطنين في المناطق الاستوائية؛ حيث يكون كل ذلك متوفراً، وكذلك فإن اختفاء الشمس في الجنة ﴿**لا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا**﴾ لن يكون لها هذا الأثر النفسي الحسن على البشر القاطنين في المناطق الشمالية الباردة من الكرة الأرضية حيث الشمس عزيزة المنال وموضع حاجةٍ، بخلاف العربي الذي يداوم الاحتكاك بها في أيامه الطويلة.

وهكذا سيتخلف الأثر النفسي للغة القرآنية في الأجهزة النفسية للبشر إذا لاحظنا انتشار توزعهم الجغرافي وبالإمكان إيراد أمثلة كثيرة تفوق ما يمكن أن يورده البعض لبيان هذا المطلب، فالمواريث الثقافية عن الشهادة والغيب في العقل العربي تصبح فيه الملائكة والجن والشياطين والغول والوديان المسكونة بها، لن تجد لها ذكراً في مجتمعات لا تعرف عن هذه المخلوقات شيئاً كالمجتمعات حديثة التكوين في الحضارة الغربية الحديث فإنسان هذه المجتمعات ينظر إلى القرآن نظرته إلى أحد الكتب القديمة البائدة في التاريخ «الإبستاق» لا لشيء، بل لمجرد أنه لا يحمل نفس الموروث الثقافي الذي كان يحمله العربي في صحرائه. وعليه لن يكون للنص القرآني قيمة أساسية في بنائه الثقافي؛ لأنه يجيب عن تساؤلات العربي وموضوعات تفكيره في أبعاده المكانية والزمانية والمجتمعية وليس عن تساؤلات غيره في أبعاده المباينة. فالعرش والكرسي والسلطان تعكس ما كان يتناهى إلى العربي من مظاهر الحكم في الإمبراطوريات المجاورة له من فرس (ساسان) وروم وهي مفردات لا وجود لها في بعض الثقافات الأخرى، من جهة أن الغربي مثلاً يعتقد بالنظم الديموقراطية في الحكم.

وبحكم احتكاك العربي بالثقافات اليهودية والمسيحية ورد من الآيات ما فيه تعرض

للأشكال المعرفية في هاتين الثقافتين، وهي آيات تحتل مساحة كبيرة من النص القرآني، لكن غير العربي لا يعيش هذه الحالة... يمكن لأي إنسان أن يتجاوز المرجعيات الثقافية لأي نص عند قراءته؟ ومهما تطورت الإجراءات الذهنية بفعل التطور العلمي. ولم يفسر لنا الداعون إلى هذه الفكرة كيف أن التقدم من شأنه أن يطور الإجراءات الذهنية. هل هي بمعنى أن تملك بالتقدم الواردة على مجردة فهم الزمان والمكان المكونتين لأي نص كما يفهم من كلامه بل لا يفهم منه إلا هذا المعنى؟ إذا ما الذي يجعل النص خطاباً موجهاً لجميع المكلفين سواء أكانوا عرباً أو غير عرب ما دام أن النص مقيد بمكوناته على مستوى الدلالة.

ويظهر هنا أيضاً أن فكرة الإطلاق الأزماني للنصوص على مستوى الدلالة غائبة عن ذهن القائلين بتاريخية النص القرآني، وإذا كان النص مقيداً بمكوناته على مستوى النشوء والجعل والحدوث، فإن النص نفسه ينزع إلى التعالي على مستوى الدلالة بقاء، والنص الديني بالذات ينسل من الواقع ليتعالى عليه ويغدو هذا النص في حل من أي قيد أو ضابط له في عملية تحركه خاصة إذا تعلق بالطبيعة أعني بطبيعي المكلف في ما يخص التشريع، أو تعلق بالدلالة المتعالية، وذلك حين تكون موضوعات المقولات الأخلاقية كالإحسان والعدل والطاعة للوالدين ونظم علاقة الزوج بزوجته والإنسان بأخيه الإنسان أو تعلق بالمستخلص المتعالي إذا تعلق النص بالتاريخ كقصص الأنبياء؛ حيث المستخلص هي العبرة حين تفلتها من أسر الزمان والمكان. قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾(١٨). ومن هنا خلت النصوص القرآنية من ذكر التواريخ والأزمنة المحددة كما هو حاصل في التوراة مثلاً، وإذا ورد ما ظاهره التقيد بالمكان أو الزمان أو المجتمع، وهي مكونات النص كما ذكر البعض تبعاً للبنيويين وأصحاب المنهج اللغوي والألسنيين، فإن المجاز كظاهرة لغوية وبلاغية سواء أكان مجازاً عقلياً أو لفظياً كفيل برفع الدلالة من أسر مكونات الدّال في النص.

ومن هنا، الاعتقاد بأن الإسلام يحاكي الفطرة الإنسانية وأنه صالح بمنظومته الفكرية والعقائدية والأخلاقية والفقهية لكل زمان ومكان؛ لأن النص القرآني نص متعالٍ والزمان والمكان في صراط تغيرهما وكذلك المجتمع يؤدي إلى تعميق الدلالة لا إلى جعل الأسماء الإلهية الدالة على علاقة الله تعالى بالإنسان «متغيرة».

والتعميق يحتاج إلى تفاعل مع النص وهو في عصر النص مختلف عما بعده من

العصور، لا لتغير في الدلالة بل لتبدل في الانفعال معها، مرده إلى حركية الثقافة الإنسانية أمام واقع متحرك هو الآخر والقرآن لم ينزل لمجرد أن يعكس مكونات العقل العربي في الجاهلية وأبعاده في الزمان والمكان والمجتمع، بل ليجعلها منطلقاً لتجاوزها؛ لذا رأينا النص القرآني يلقي في الفكر العربي والإنساني مفاهيم لا قبل لهم بها في مفردات وتراكيب ونظام لغوي هو ما صنفه العرب بأيديهم فأعجزهم وأذهلهم ووجدوا أن لا مفر لهم من الإذعان له؛ لأن العرب أمة لا يقادون إلا بألسنتهم.

والخلاصة لا يمكن من خلال القول بأثر البيئة في بنية النص القرآني النفوذ إلى القول بتاريخية هذا النص.

الهوامش

(١) سورة يوسف: الاية٢.
(٢) راجع: جورج بولتنزير، المادية والمثالية في الفلسفة، ص ٧٧.
(٣) رولان بارت، مبادئ في علم الدلالة، ص ٣٤.
(٤) سورة ابراهيم: الآية ٤.
٥ نهج البلاغة.
(٦) الملا هادي السبزواري: الأسفار الأربعة، ج ١، ص ١١٨.
(٧) راجع: مجمع الأمثال للميداني والمستقصى للزمخشري.
(٨) سورة يس: الآية٣٩.
(٩) سورة الواقعة: الآية ٢٩.
(١٠) سورة ق: الآية ١٠.
(١١) سورة المائدة: الآية ١٠٣.
(١٢) سورة الأنفال: الآية٣٥.
(١٣) سورة البقرة: الآية ١٥٨.
(١٤) سورة التكوير: الآيات ٨-٩.
(١٥) سورة الرحمن: الآية ٧٢.
(١٦) سورة الرحمن: الآية٥٦.
(١٧) سورة ابراهيم: الآية ٤.
(١٨) سورة يوسف: الاية ١١١.